خطبة صلاة الجمعة 30/12/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم التوبة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم التوبة**

كان فريد شاباً مسرفاً على نفسه لم يترك ذنباً إلا ارتكبه ولا معصية إلا اقتحمها، وكلما دار حديث التوبة أمامه وقع في خَلَده أنه غير معني بهذا الأمر، وأنه محال أن يتوبَ اللهُ عليه؛ لأن التوبةَ لا ينالها من ارتكب من الموبقات أعظمها ومن الخطيئات أشنعها.

ترى هل صحيح أن التوبة لا تلحق من أسرف على نفسه، ولن يتوب الله على من تجاوز الحد في معاصيه، ما المفهوم الصحيح للتوبة؟!

صحب رشيد الصالحين وأحبهم وأحب طريقهم، فتاب من معاصيه السالفات واجتهد في البر والطاعات، ولكن ذنباً لا يزال يعاوده بين الفَينة والأخرى، وكلما تاب منه ووعد ربه أنه لن يعود إليه، زلّت قدَمُه وسقط، وتكرر منه ذلك مرات ومرات، فاستحيا من ربه أن يعود إليه وخجل من كذبه عليه، فقرر أن يبتعد عن درب الصالحين إلى أن تستقيم أحواله وتصدق توبته!

ترى هل صحيح أن التوبة لا تلحق من أكثر الذنوب وكررها، وهل كثرة التوبة ومعاودة السقوط تدعو صاحبها إلى هجر التوبة والتائبين، ما المفهوم الصحيح للتوبة؟!

رأى خليل في قاعة المغادرين في المطار صديقه القديم مرتدياً لباس الإحرام، ذهب إليه وسلم عليه فتلعثم الرجل برد السلام، وسأله عن وجهته فقال إلى العمرة، فذَكَّره بدَينٍ قديم له عليه، فأقرَّ وقال له سامحني به، فقال له كيف أسامحك ولم ترده لي؟ قال: إن لم تسامحني فسيسامحني الله فأنا الآن ذاهب للعمرة، والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما!

ترى هل التوبة والاستغفار في العمرة أو غيرها يُسقط حقوق العباد! ما المفهوم الصحيح للتوبة؟!

لم تكن غالية منضبطة بضوابط الدين، قبل أشهرٍ أكرمها الله بصاحبة صالحة أخذت بيدها لدرب الله فتابت مما سلف وبدأ التزامها، سألت من حولها هل تقتضي توبتها أن تقضي ما فاتها من فرائض الصلاة والصيام والزكاة، فأخبروها بأن التوبة تجبُّ ما قبلها، وما فات مات ولتبدأ من الآن.

ترى هل صحيح أن التوبة تجبُّ ما قبلها؟ ما المفهوم الصحيح للتوبة؟!

أيها الإخوة:

التوبة في لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب، أي: رجع، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه، رجوع عن الغفلة إلى الذكر، ورجوع عن البعد إلى القرب، رجوع عن الجفاء إلى الوصال، وعن المعصية إلى الطاعة، ورجوع عن الانصراف عنه إلى الإقبال إليه.

ومنزلة التوبة من أول منازل السائرين إلى الله وأوسطها وآخرها، وحاجة العبد إليها في النهاية كحاجته إليها في البداية، وقد قال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهلَ الإيمان وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

ومهما ارتكب العبد من الموبقات والمعاصي فقد أبقى الله تعالى له باب التوبة مفتوحاً، فقد أخرج الشيخان عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 68-70] ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

فباب التوبة مفتوح لمن ارتكب الكبائر أو الصغائر ما ندم العبد على تقصيره وأقلع عن ذنبه وأتبع السيئة الحسنة ورد الحقوق إلى أصحابها.

ثم إن العبد ربما يتوب ويعود، ثم يتوب ويعود، فلا يمنعه عودُه إلى الذنب من عوده إلى التوبة، فإن الله تعالى لا يزال يقبله ما دام مريداً الرجوعَ إليه سبحانه وتعالى.

أخرج البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن رجلاً قال: يا رسول الله! أحدنا يذنب قال: «**يُكْتَبُ عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: «**يغفر له ويتاب عليه**»، قال: فيعود ويذنب، قال: «**يكتب عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «**يغفر له ويتاب عليه**» قال: فيعود ويذنب قال: «**يكتب عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «**يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا**».

ولعله من أجل ألا يترك العائدون إلى الذنوب العودةَ إلى التوبة كان صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح يقول: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة، فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وأعرفِهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

وشرائط التوبة أربعة:

أولها: الندم على التقصير في جنب الله والاعتذار منه بالاستغفار.

وثانيها: الإقلاع عن المخالفة والاشتغال بأضدادها من الحسنات.

وثالثها: رد الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب مع الناس.

ورابعها: قضاء ما فات إن كان الذنب في فرائض الله.

فمن عرف حقائق التوبة والتزم شرائطها، يقال له: «**يا ابن آدم، إنك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني: غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم، لو بلغتْ ذنوبُك عَنَانَ السماء، ثم استغفرتني: غَفَرْتُ لك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم إنك لو أتيتني بِقُراب الأرض خَطَايا، ثم لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئاً: لأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَة**» [البخاري].

حصل لبعض العارفين ذنوب وشرود، فرأى في بعض السكك باباً قد فُتِح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يئويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مرتجاً، فتوسّده ووضع خدّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يئويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل هذه القصة مع ما جاء في صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم «**لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**».

أيها الإخوة:

وبناء على كل ما سبق نقول لفريد: مهما كانت ذنوبك كبيرة ومهما كنت مسرفاً على نفسك فإن باب التوبة يسعك فلا تقنط، ونقول لرشيد: مهما كانت ذنوبك كثيرة ومهما تبت وأذنبت فلا تستحيي أن ترجع إلى الله ولو في اليوم الواحد مائة مرة، ونقول لصديق خليل: إن من شروط التوبة النصوح أن يعاد الحق إلى أصحابه فرُدّ المال إلى صاحبه ثم ادع ربك في عمرتك لتكون كفارة لك، ونقول لغالية: التوبة تجب ما قبلها من انصرافك عن الله تعالى ولكن الفرائض من صلاة وصيام وزكاة لا بد من قضائها.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

1- التوبة في لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، فالتوبة رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه.

2- منزلة التوبة من أول منازل السائرين إلى الله وأوسطها وآخرها، وحاجة العبد إليها في النهاية كحاجته إليها في البداية.

3- مهما كانت الذنوب كثيرة أو كبيرة فإن باب التوبة يسعها.

4- شرائط التوبة أربعة: الندم على التقصير في جنب الله والاعتذار منه بالاستغفار، والإقلاع عن المخالفة والاشتغال بأضدادها من الحسنات، ورد الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب مع الناس، وقضاء ما فات إن كان الذنب في فرائض الله.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات. ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم التوبة، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين